المواطنة ومساءلة العقل في الخطاب الإصلاحية لدى قادة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

Citizenship and Mind-questioning in the Reformist Discourse
of the Association of Algerian Muslim Scholars Leaders

د. ياسين سرايحية

جامعة محمد الشريف مساعدية - سوق أهراس (الجزائر)

seraiaia_yassine@yahoo.fr

تاريخ القبول: 2021/09/23

تاريخ الإرسال: 2021/09/09

ملخص:

تكونت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في ظروف خاصة وكانت جمعية إرشادية تهيئية ولا علاقة لها بالمسائل السياسية، بل كان عملها تهيئيا محضا متمثلا في محاربة الآفات الاجتماعية وتهديب الناس وفق ما ينص عليه الشرع المستمد من القرآن والسنة. من هذا المنطلق تسعى هذه الورقة البحثية إلى تقصي فكر المواطنة لدى جمعية العلماء المسلمين الجزائريين والوعي الذي غرسته في أذهان مجتمع كان يعيش تحت وطأة التخلف والفقر والرجعية التي سببها له المستعمر وعملاؤه، وكيف استطاعت هذه الفئة التنويرية في ظرف خاص من الانتقال بالفكر العفوي إلى الفكر العقلي؟ وفكر لا يروم إلا التفكير في حيثيات يومه إلى فكر عميق؟ فكر انتقل من العفوية إلى التجريد ومن الاستسلام لواقعه المرزي إلى فكر يتأسس على الوعي والانتقاد الذاتي والاختلاف.

الكلمات المفتاحية: الإسلام، المواطنة، الوعي، جمعية العلماء، الحرية.

Abstract:

The Algerian Muslim Oulemas Association was founded as a non political association in a very special time to combat all those social flaws, to bring up and to educate population in the light of Islam directives from the Holly Quran and the Suna. In the line of this perspective comes this paper to trace back the idea of citizenship among the association members and the awareness rooted in the mind of the population that experienced poverty and old-fashioned thoughts that were caused by the colonizer and his agents. Moreover, this paper shows the extent of success in eradicating spontaneous thinking and rooting rational thinking in a very brief time, going beyond spontaneous thinking in daily life needs to deep rational thinking to construct self-criticism, awareness and diversity.

Keywords : Islam, freedom, citizenship, awareness

توطئة:

لو سلّمنا بالسؤال التالي لشعب من الشعوب ما هو سر الوعي المميز الذي تتسمون به؟ فيجيبك لا محالة أنّ ذلك لم يكن من محض الصدفة بل كان نتاج مجهودات أناس يعيشون في زمان ومكان محددين، ذلك أنّ الوعي لا يحقق الخلود في أيّ مجال من مجالات التنمية الإصلاحية إلا إذا وصل إلى مستوى العموم النظري.

وفق هذا المنحى بدأت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين تعمل من أجل مقومات الشعب الجزائري لاسترجاعها بعدما عمل المستعمر على طمسها بكل ماله من إمكانيات على مدار قرن بالتمام. علما أنّ استرجاع صنيع رجال الجمعية سبقته بعض الأعمال السابقة عليه متحلية في تلك المقاومات السياسية التي قادها الأمير خالد الذي نفثه الإدارة الفرنسية خارج الجزائر سنة 1917، ثم مجهودات حزب نجم شمال أفريقيا الذي حلّ في 1929 ثم حزب الشعب الجزائري.

تكونت جمعية العلماء المسلمين في الجزائر في هذه الظروف الخاصة وكانت جمعية إرشادية تهذيبية ولا علاقة لها بالسياسية، بل كان عملها تهذيبيا محضاً متمثلاً في محاربة الآفات الاجتماعية وتهذيب الناس وفق ما ينص عليه الشرع المستمد من القرآن والسنة.

ركزت الجمعية على بعث عناصر الهوية الوطنية (اللغة والدين والتاريخ)، وهذه العناصر هي القاسم المشترك بين جميع أطراف المجتمع، وكان هذا مبتغى الجمعية لأنّ أيّ خطاب مهما كان دينياً أو سياسياً أو اجتماعياً لا يكتب له النجاح إلا إذا احتضنه المجتمع وما دون ذلك سيبقى خطاباً حالمًا.

لذا سعت الجمعية من أجل تنشيط أو اصر المجتمع إلى تقديم دروس الوعظ والإرشاد في المساجد وفي بعض النوادي، كما كانت تركز على تعليم الصغار للغتهم وتربيتهم تربية عقديّة إسلامية سليمة بعيدة عن براثن الطرق الطرقية والمرابطية التي عملت على إبعاد المجتمع عن أي حركة تنويرية، وأرست تقاليد الفكر المغلق العاجز عن التفكير، ويذكر مبارك المليلي أنّ جلّ أنشطة الجمعية في مجالات الكتابة والخطابة تتضمن محاربة الطرقية كجزء مهم من نشاطاتهم⁽¹⁾.

فما كانت تؤديه الجمعية هو إصلاح شامل غايته توعية الجزائريين، وهو إصلاح تربوي اجتماعي وطني ذو طابع سياسي يتم في المدارس الحرة والكتاتيب القرآنية، بمعنى أن الإصلاح والتعليم كانا غايتنا عبد الحميد بن باديس منذ سنة 1931 إلى سنة 1940 حين وفته المنية، حيث كان هدفه من هذا العمل وطنيا وسياسيا وهو هدف بعيد المدى⁽²⁾.

وكانت رسالة الجمعية تركز على ما أعلن عليه شيخها ابن باديس في قوله "أما اليوم فقد تأسست في الوطن كله جمعيات ومدارس ونواد باسم الشباب وشعارها التاريخي العربية لغتنا والإسلام ديننا والجزائر وطننا"⁽³⁾.

ولمقاربة أهم مرتكزات الوطنية والوعي بها وجب علينا أن نسائل بعض القضايا الدالة عليها في الخطاب الإصلاحي لدى جمعية العلماء المسلمين بغية تمكين المواطن الجزائري من بناء هويته وترسيخ مبدأ الشعور بالانتماء.

1- أنطولوجية المواطنة والوعي بها في خطاب جمعية العلماء المسلمين:

تأخذ المواطنة حيزا كبيرا في أعمال جمعية العلماء كون الحديث عنها بمفهومها الحدائثي شبه غائب ويتجلى في مفهوم الأخوة الذي يعزز هذا البعد الديني الذي يحث المسلم على ضرورة التعايش مع المسلمين وغيرهم من الملل الأخرى إلا المعتدين على الشعوب وعلى الإسلام، لذلك نجد أن ابن باديس يركز على هذه القيمة الإنسانية الضرورية لبناء وطن متحرر يقوده فكر متنور تراعى فيه الأخوة التي تسمو على كل اعتبار وتوسع لكل الجزائريين، فيقول: "أيها الإخوان هو مرادي بقولي: "إني أعيش للجزائر والآن -أيها الإخوان- قد فهمتموني وعرفتم سمو فكرة العيش للإسلام فهل تعيشون مثلي للإسلام؟ نعم! نعم! بصوت واحد"⁽⁴⁾.

ربط ابن باديس المواطنة بالانتماء إلى الإسلام الذي يحث على حب الوطن، فهو خطاب يراعي كل المتغيرات التي عرفتها الإنسانية، الخاصة قضايا العصر السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي تستند إلى ثوابت الشرع ومقتضيات العقل.

وظف ابن باديس أسلوبا اعتمد فيه على الوظيفة الإفهامية "فهل تعيشون مثلي للإسلام وللجزائر"، فهذه الجملة تحتوي على قيمة تداولية الهدف منها هو التقرير

والاستفهام التقريري لا ينتظر منه المستفهم جوابا، وإنما غرضه تقرير ما ترسخ في ذهن المستمع من معارف ومعلومات، ويكون الجواب عن هذا السؤال غالبا بالإيجاب، وهذا ما يؤكد جواب الحاضرين بقولهم "نعم، نعم"، كما يؤكد أيضا مشاركتهم فحوى الخطاب مع الخطيب، فكان هدفه هو إثارة المتلقي وتوجيهه والتأثير فيه، فالفعل "التواصل هو فعل العمل الذي يتخذه هدفا له إثارة عمل ما"⁽⁵⁾.

كما تتحلى المواطنة كهدف في المشروع الإصلاحية لدى ابن باديس في القضاء على عناصر التفرقة وزرع الفتنة التي تؤدي إلى الضعف وزرع الضغينة، وبالتالي تشتت الوحدة يقول ابن باديس: "وقد كتب أبناء يعرب وأبناء أمازيغ آيات اتحادهم على صفحات هذه القرون... فأبى قوة بعد هذا يقول عاقل تستطيع أن تفرقهم، ولا الظنون الكواذب والأمانى الخوادم. يا عجب! يفترقوا وهم الأقوياء فكيف يفترقون وغيرهم القوي؟..."⁽⁶⁾.

فالعروبة لدى ابن باديس امتزجت بكيانهم وأجسادهم ولا يستطيع أي مباحك أن يفصل العروبة عن الجزائريين، وقد أعلن سنة 1938 أن رسالة جمعية العلماء المسلمين تركز على ثلاثة عناصر أساسية وهي الإسلام والعروبة والجزائر⁽⁷⁾.

ويرى أن الخطوة الأولى في سبيل تحرير الجزائر من الاستعمار تبدأ من تحقيق الوحدة الوطنية والقومية، لذلك عمل على إيجاد هذه الوحدة وكانت جملة أهدافه لتحقيقها تربية وإصلاحية لذلك ربط بين العروبة والدين كمرتكز أساسي لتحقيق هذا الهدف⁽⁸⁾.

أما المحاولات التي أراد أصحابها تفريق الجزائريين فقد تصدّى لها ابن باديس من خلال برامج الجمعية التعليمية التي تأسست على دعائم العقيدة الإسلامية السمحة والامتنال للشعار الذي رفعه من البداية والمتمثل في: "الإسلام ديننا، العربية لغتنا، والجزائر وطننا" و"ما جمعه يد الله لا تفرقه يد الشيطان" هي إشارة لكل أولئك الذين أرادوا تكريس التفرقة التي أرادها الاستعمار وأذباله.

كما يقدم ابن باديس مفهوما للمواطنة يرى أنها مرتبطة بواجباته من نهضة علمية واقتصادية وعمرانية والمحافظة على شرف اسمه وسمعة بنيه، فلا شرف لمن لا يحافظ على وطنه.

إنّ تركيزه على الوحدة الوطنية لم يكن بالانتماء إلى العرق العروبي فحسب بل كانت متجسدة في نبذ التفرقة والاختلاف في المسائل الدينية المرتبطة بالأصول لا بالفروع التي هي واقع فيه لا محالة، وكلها كانت امتدادا لتكريس الوحدة الوطنية⁽⁹⁾.

وما يستنتج من خطابات ابن باديس أنّها تحمل إنسانية المواطنة وتمثل في التركيز على الوحدة من الخارج التي تؤطر الاختلاف من الداخل، ففي استقرائنا لبعض نماذجها نجد أنه يركز كثيرا على الدعوة إلى الإصلاح والتسامح والحب لكلّ الإنسانية، وما تركيزه على الوحدة الوطنية العربية والإسلامية بكلّ أطيافها ولغاتها وألوانها وأجناسها وعقائدها إلا دليل على عدم التفريط أو التنازل على حق من حقوق الوطنية كالحرية والتحرر المستمدة من العقيدة الإسلامية السمحة، ذلك "أنّ الإسلام يسوّي في الكرامة البشرية والحقوق الإنسانية بين جميع الأجناس والألوان"⁽¹⁰⁾. كما أن الإسلام يدعو "إلى الأخوة الإسلامية بين جميع المسلمين وبين الإنسانية والبشر جميعا"⁽¹¹⁾.

فالإسلام دين عدل بين جميع الخلق، ويفرض العدل فرضا تاما ويحقق مبدأ التساوي بين الناس، وضرورة الالتزام بالحقوق والواجبات، يعني أن ابن باديس يهدف إلى تأسيس دولة وطنية منطلقها الأساس هو الاختلاف في إطار الوحدة الدينية.

كما يرى أنّ غرس الوطنية والبرهنة على الانتماء للوطن والسمو بمقامه وهمته لا تكون بشعارات جوفاء أو مجرد جمعجة لا ترى لها طحينها، بل يؤكد أنّ الوطنية هي برهان وانضباط، ويؤكد هذا الخطاب الذي توجه فيه لأهالي قسنطينة "أيها القسنطيون... برهنوا على وطنيتكم، برهنوا على ديانتكم، برهنوا على حياتكم، برهنوا على محبتكم للعلوم والآداب، برهنوا على محبتكم للرقى والمدنية، برهنوا هذه كلية بإقبالكم العظيم على الاحتفال العظيم الذي ستقيمته الكلية الجزائرية"⁽¹²⁾.

تبرز هنا سلطة المتكلم وقصديته وهي التأثير في المتلقي بواسطة الإمكانيات اللغوية المتاحة التي نلمسها بواسطة أداة النداء، والتكرار المتمثل في فعل الأمر الذي تكرر ستة مرات لخلق دافعية يستنهض بها الهمم بغية تحقيق مشاركة فعالة لأفكاره من المتلقي، ذلك أنّ الخطاب الإصلاحي هو فعل تواصلية ونشاط اجتماعي غايته الربط بين أفراد المجتمع في تحقيق مصائرهم المشتركة.

وبالتالي فإنّ فعل المواطنة في خطاب جمعية العلماء المسلمين كان شاملا لكلّ البلدان العربية وخاصة تلك التي تعاني صراعا تاريخيا مثلما هو حال فلسطين، إذ يقول: "باسم الأمة الإسلامية أرفع احتجاجي الشديد ضدّ مشروع تقسيم فلسطين ذلك القطر العربي الذي ضمنت له العهود والمواثيق الدولية حفظ كيانه واستقلاله ... لي الأمل في تخل الحكومة الفرنسية لمنع هذا التقسيم"⁽¹³⁾.

يؤمن الإمام بالمشروع الأوسع للوطنية الذي يتجاوز به حدود الوطن الجزائري إلى الأمة العربية برمتها ليعلن إيمانه القوي بالقومية العربية، ويذكر عثمان سعدي أنّ ابن باديس يصف محمد رسول الله أنه "رجل القومية العربية إلى جانب كونه رسولا للناس جمعا"⁽¹⁴⁾.

ولو أنّ الدين الإسلامي جاء ليوحد شملهم فهو يرى أنّ قضية فلسطين تبقى وظيفة كل مسلم غير على دينه، بل هي القضية الجوهرية التي يلتزم النضال حولها، والقومية عنده هنا ليست شوفية كما هي عند الغرب أو عنصرية بل مرتبطة بالتراث الإسلامي ومشوية بالتراث الذي يقرّ الحق ويمقت الباطل ويجعل الكلّ على حدّ سواء حقا وواجبا، لذلك نرى أنّ هدفه السياسي لم يكن محليا أو إقليميا فقط بل كان كونيا، وهي سمة الفكر الحر المنثور.

ومنه نخلص أنّ أساس المواطنة عند ابن باديس مبني على مقومات الأمة: اللغة والدين والوطن. وهو الشعار الذي نافح عليه البشير الإبراهيمي أيضا إضافة إلى قضايا أخرى مشتركة بينهما كالقضية الفلسطينية، ويؤكد بإلحاح على ارتباط الجزائريين بها فينادي "يا فلسطين، إنّ في قلب كلّ مسلم جزائري من قضيتك جروحا دامية، وفي جفن كلّ مسلم جزائري من محتك عبارات هامية، وعلى لسان كلّ مسلم جزائري في حقك كلمة مترددة هي: فلسطين قطعة وطني العربي الصغير، وفي عنق كل مسلم جزائري لك - يا فلسطين حق واجب الأداء ومتأكد الرعاية"⁽¹⁵⁾.

فالمسألة الفلسطينية ليست مسألة المبكى أو البراق بل هي مسألة استعمار واغتصاب لبلد بريء، ومن يشعر بهذا هو من عانى استعمارا مشابها له ولبلاده، لذلك كان تنديد الإبراهيمي في أكثر من موقف ومحطة، ومقته للاستعمار الفرنسي في الجزائر والكشف عن الرغبة في تصفية كلّ يؤر الاستعمار في العالم. وهذا في الأصل هو واجب كلّ عربي مسلم

غيور على بلاده ولغته ودينه. لذلك نجد أنّ الإبراهيمي كتب ما يربو عن خمس عشرة مقالة عالج فيها موضوعات مشتركة حول مسألة الوعي بأهمية الانتماء للوطن وغرس روح الوطنية كتيمة أساسية في خطابه لا كمادة فقط⁽¹⁶⁾.

2- المواطنة في خطاب الجمعية وسؤال العقل والتنوير:

سعى رواد الخطاب الإصلاحي في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين إلى تبني العقل والتنوير كقيمة قارة ومعرفية في خطاباتهم، وتعاملوا معهما كقيمة جوهرية وكهدف أسمى لتحقيق قضاياهم.

فإذا كان التنوير في أوروبا ارتبط بالعقل والحرية وهما ركيزتان أساسيتان لتحقيق النهضة فيبدو أنّ الحركة الإصلاحية في الجزائر هي الأخرى واكبت وانطلقت من ذات المنطلق الذي انطلقت منه أوروبا في عصر الأنوار رغم تباين الأهداف، خاصة فيما يخص النظر إلى مفاهيم الميتافيزيقيا، فكان للعقل حضورا باذخا في خطابات ابن باديس والبشير الإبراهيمي وغيرهما، وتطرقا إلى مساءلة العقل لتبرير أهمية التوعية والإرشاد وإخراج الفكر الإنساني من التحجر والتجهيل الذي مارسه فرنسا المستعمرة وبإيعاز من الفرق الدينية الضالة كما سلف الذكر على المجتمع الجزائري، ومن ناحية أخرى فقد فقه رواد الإصلاح أنّ العقل هو الوحيد القادر على تمثل الخطاب الديني الإسلامي ويومئ إليه من حاجة الفرد لوطن يؤطره ويرعاه كإطار وكفكرة محمولة في الأذهان، ووعوا أيضا أنّ العقل التنويري ملازم للوطنية كمشروع وللغة كعنصر هام يوحد الصفوف.

ويرى الإبراهيمي أنّ الإصلاح الحقيقي والشامل لا يهتم إلا بالعقل وما فوق العقل والعقل هو أساس وحدة الأمة، وعنصر رئيسي من العناصر التي تحقق به الأمة وحدتها ذلك أنّ "الكمال في المجموع متوقف على الكمال في الأفراد، وأنّ النقص في المجموع مترتب على النقص في الأفراد فمتى أخذ الأفراد بأسباب الكمال وسلكوا له وسائل كمل المجموع"⁽¹⁷⁾.

ويعتقد البشير الإبراهيمي أنّ سبب تخلف المسلمين يعود أساسا إلى تعطيل العقل فالقرآن في صورة المصحف بمعزل عن الإنسان لا شأن له، فهو مجرد ختم من الخواتيم أو أثر من الآثار تنتظر الحفر والإظهار، هو كتاب مغلق يفتح بالعقل هو "كتاب الدعوة، ولا

تكشف عن حقائقه العليا إلا تصاريف الدهر، والقرآن كتاب الهداية الإلهية العامة، فلا يفهمه إلا المستعدون لها، والقرآن لا يبلى جديده ولا تنقضي عجائبه⁽¹⁸⁾.

فالإبراهيمي يدعو إلى ضرورة تشغيل العقل كضرورة قصوى يتجاوز بها الإنسان قصوره وتخلفه وقابليته للاستعمار وللسيطرة، فالعقل هو أساس التحرر وهو الوحيد الذي سيقود لا محالة إلى تحقيق وغرس وتمثل مفاهيم الوطنية وبناء وعي جاد ذلك أنّ العقل لدى الإبراهيمي مرتبط بالعمل ومساءلة الذات والآخر، ولذلك يطرح الإبراهيمي إشكالية رئيسية لتشغيل العقل وهي مساءلة الواقع وعدم الانقياد وراء الفكر الشمولي المغلق دوغمائيا، لكون العقل المتنور هو الوحيد المحرر من طغمة الجهل ويكشف عن الرذائل والدسائس.

كما يدعو صراحة إلى ضرورة تحديث الماضي بتفكيكه ومساءلته للكشف عن إيجابياته ومآخذه ونقرأ للإبراهيمي في هذا السياق: "ومع طول الزمن رانت الغفلة، وقست القلوب وطغت فتنة التقليد، وتقديس الأئمة والمشايخ، والعصبيّة للأبّاء والأجداد وغلت طوائف منهم في التبعّد، فجمحت ناجمة التصوف والاستغراق، فاختلت الموازنة التي أقامها القرآن في الجسم والروح، وغلت الحظائر الغيبية، فتشعبت به السبل إلى الحق في معرفة الله وتوحيده"⁽¹⁹⁾.

يدعو الإبراهيمي إلى إمعان العقل وتحريره وفق ما ينص عليه الدين الإسلامي، لأننا أمة مختلفة عن الغرب، فإذا كان الفكر الحر الذي ولد في الغرب انبى على مبدأ التمرد على الله فعند المسلمين يظلّ الفكر الحر هو أساس الشرع ولا نفقهه ولا نتمثله إلا بالعودة إلى التعاليم الدينية السمحة التي تتجاوز الانغلاق والتحجر والسلطة الماضية. فدعوة الإبراهيمي صريحة وهي تؤمن بأنّ الدين الإسلامي جاء لإحياء العقول دون مغالاة أو تطرف.

نستنتج مما سلف أن خطاب الجمعية الإصلاحية المتحلي في خطاب الإبراهيمي لا يركز على الانغلاق على الذات والانفصال على روح العصر، بل يدعو إلى الاستفادة منه، لما يحمله من كسب حضاري لتنمية حركة التغيير في المجتمع الجزائري، ودفعه نحو تجاوز إخفاقاته، ليحقق مشروعه المتمثل في الوعي بالمواطنة والانتماء للوطن، لذا نقول إنّ الشيخ الإبراهيمي ينتمي إلى فكر التنوير والتثوير والتجديد في الخطاب الإسلامي الذي ينادي بالالتزام بأصول الإسلام وأحكامه وقبول مبدأ الحوار بين الأنا/الإسلام، والآخر/الغرب

والاستفادة من معارف وعلوم الآخر مقتنعا في ذلك من أنّ الحضارة ملك مشاع بين جميع البشر فالمدنية التي تردد لفظها الألسن ويصطلح المؤرخون نسبتها إلى أمم مختلفة، ويميز بينها بطوابع خاصة ويشتد المتعصبون في احتكارها لأمة دون أمة... هي في الحقيقة تراث إنساني تسلمه أمة لأمة⁽²⁰⁾.

فالإبراهيمي يدعو إلى ضرورة الأخذ من الحضارة الغربية ما يخدمنا ليتمكن العالم الإسلامي من تجاوز ضعفه وأزماته والنهوض من كبوته المستلبة، مع التأكيد على تجاوز مظاهر الإيديولوجية الغربية التي تتنافى مع المرجعية الإسلامية السمحة⁽²¹⁾.

كما تتجلى أهمية المواطنة في الخطاب الإصلاحية لدى جمعية العلماء المسلمين في خطابات باعث النهضة الشيخ عبد الحميد بن باديس الذي حارب الجهل وكلّ مظاهر التخلف الاجتماعي والركود إلى الشعارات الجوفاء الجامدة، وغياب الوعي والاكتفاء بالنقل والانزواء بالذات فيرى أن "الجاهل به ولو كان من أعلم الناس بغيره، وما علمه بما علم يرفع جهله فيما جهل، إن هذه الحقيقة من الواضح بمكان، يحتاج إلى تكرار ذكرها بقدر ما يتكرر من وقوع مخالفته، إن الناس قسمان: الجاهلون بكل علم، والعالمون وليس منهم من يعلم كل علم. ومن العجيب أن أهل الجهل أعرف بجهلهم فلا يتكلمون فيم لا يعلمون، وأما أهل العلم فكثير ما يتجاوزون حدود علمهم فيتكلمون بما لا يعلمون..."⁽²²⁾.

تأسس الفعل الإصلاحية لدى ابن باديس على النزعة العلمية التنويرية السليمة الصحيحة، المستمدة من الكتاب والسنة النبوية التي استوحى منها الإمام منهجه، فكان ابن باديس يهدف بخطابه الإصلاحية نشر العلم النافع الذي يخاطب الفطرة الإنسانية السليمة، ولا يتحقق ذلك إلا بالتناغم بين الإنسان كجزء وباقي أجزاء الكون الذي ينتمي إليه وهي الرابطة التي تحقق سعادته في الدنيا والآخرة.

كما سعى ابن باديس إلى محاربة كل أشكال الجهل الذي تمكن من المجتمع الجزائري والذي ساعدت على نشره فئتين ضاليتين وهما: فئة الجهلة وفئة المتعلمين، لذلك حاول صاحب الآثار أن يحذر من شر هاتين الفئتين، ودفعت هذه الأوضاع السائدة وغيرها ابن باديس إلى وضع خطة استراتيجية خطايبية أساسها تنوير العقول رغبة في تغيير سلوكيات

الأفراد وتصحيح المفاهيم السائدة وإعادة تشكيل ذهنيات تتجاوب مع المتطلبات العلمية السليمة الدين الإسلامي.

وتتحلى الدعوة في ذلك في تفسير ابن باديس انطلاقاً من قوله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلُ أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعِيَ وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف 118].

فيقول هو "كان يدعو إلى الله على بينة (يقصد رسول الله) وحجة، ويصل بها إلى الإدراك التام للعقل حتى يصير الأمر المدرك واضحاً لديه كموضوع الأمر المشاهد بالبصر وهو على بينة ويقين من كل ما يقول ويفعل، وفي كل ما يدعو من وجوه الدعوة إلى الله في حياته كلها وفي جميع أحواله وكانت دعوته المبينة على الحجة والبرهان مشتملة على الحق والبرهان، فكان يستشهد بالعقل ويعتضد بالعلم ويستنصر بالوجدان، ويحتج بأيام الله في الأمم الخالية"⁽²³⁾. وخلق الله محمد وجعله قدوتهم وفرض عليهم اتباعه والاستئناس به فلا وصول إلى تحقيق السعادة في الدارين إلا باقتفاء آثاره والسير في سبيله⁽²⁴⁾.

إن مشروع المواطنة كظاهرة أنطولوجية في الخطاب الإصلاحية لدى ابن باديس يتأسس على مبدأ الاختلاف واستبطان العمق لقراءة التراث، ومن هنا تطرح إشكالية القراءة الواعية التي تتأسس على مبدأ المقاربة واختلاف زوايا تناول للقضية الواحدة⁽²⁵⁾ وبالتالي كما رأينا عند الإبراهيمي فإنها تتحرر من العقل الأبوي الذي يحكم السياسة والمرجعية إلى فئة واحدة ضالة (الطرقية، والمرابطة) قراءة تفرض نمطا متكونا من المواطن - القارئ الممنوع من حرية الاختيار بين أكثر من رأي واحد.

وكما يذكر زعماء الإصلاح وحب علينا أن نتجاوز بإمعان عقولنا في وقائع الحقيقة المسطرة قبلنا من طرف زعامات ثقافية تدعي احتكار الحقيقة فرديا وبناء فكر مواطني لديه القدرة على مساءلة الحقيقة بما تقتضيه مرجعية قوامها السن والشرع.

3- مرتكزات حركة المواطنة في فكر جمعية العلماء المسلمين

3-1- الشمولية: كانت فكرة الجمعية شاملة لكل مناحي الحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية، فكانت تدعو إلى فهم شامل للإسلام عبادة وأخلاقا ودينا ودولة وفق

مشروع بناء مجتمع متكامل يحقق له روح الشعور بالانتماء إلى الوطن الذي يراعه. فالشمول هنا هو شمول الإنسان الذي هو مدار الفكرة والمعول عليها في إنجاحها⁽²⁶⁾.

3-2- الكونية: تتجلى فكرة الكونية في فكر المواطنة لدى جمعية العلماء المسلمين في خطاب البشير الإبراهيمي ذو النزعة العالمية وفهمه للإسلام وللأخوة فيه، فالأمة الجزائرية عنده قطعة من المجموعة الإسلامية العظمى من جهة الدين، وهي ثلة من المجموعة العربية من جهة اللغة... فالأمة الإسلامية بهذا الدين وبهذا اللسان تكوّن وحدة متماسكة الأجزاء يأبى لها الله أن تتفرق مهما كانت دعاوى التفريق.

3-3- الإنسان أساس التغيير: يقتضي التغيير أن يكون في النفوس، فالفرد لا يغير مجتمعه إلا بتغيير نفسه، وإذا ما عدنا إلى الفكر الإصلاحي لجمعية العلماء المسلمين نجد يتأسس على البعد الإنساني المستمد من العقيدة الإسلامية فلا نلمح إلا سمات الحب والتسامح للإنسانية على اختلاف ألوانها وأجناسها وعقائدها ويجب أن يكون حبّ الوطن دليل الإنسانية. وتجلّى هذا في المقولة المشهورة: "نحب من يحب وطننا ونبغض من يبغضه ويظلمه".

3-4- المواطنة: ركز ابن باديس على روح الانتماء للوطن: "أما الجزائر فهي وطني الخاص الذي تربطني بأهله روابط من الماضي والحاضر والمستقبل بوجه خاص وتفرض علي تلك الروابط لأجله - كجزء منه - فروضا خاصة وأنا أشعر بأنّ كلّ مقوماتي الشخصية مستمدة منه مباشرة، فأرى من الواجب أن تكون خدماتي أو ما تتصل بشيء تتصل به مباشرة"⁽²⁷⁾.

بهذه المرتكزات تمكن رواد الإصلاح من غرس أفكار سامية في نفوس الطلاب، مبنية على روح التعاون والإخاء وخدمة الوطن بوعي وعقل متنور وفكر متطلع، بعيدا عن الحقد والكراهية والتعصب والأحادية.

خلاصة:

نخلص من هذه الورقة البحثية المتواضعة حول مشروع المواطنة ومسوغاته في فكر جمعية العلماء المسلمين إلى:

- 1- ما قامت به الحركة الإصلاحية في الجزائر جاءت لزحزحة الإنسان من عالم الأشياء إلى عالم الأفكار، فالعقل الناضج والفكر الواعي والقلب المستنير هي المعادلة التي دأب ابن باديس على إيجاد تناسقها واتساقها وانسجامها حتى يكون له فكر تنويري وطني تغييرى شامل للبناء الحضارى.
- 2- يتأسس مشروع المواطنة كظاهرة أنطولوجية في الخطاب الإصلاحي لدى ابن باديس على مبدأ الاختلاف واستبطان العمق لقراءة التراث بوعى حدثى.
- 3- تركيز زعماء الإصلاح على تجاوز وقائع الحقيقة المسطرة قبليا من طرف زعامات ثقافية تدعى احتكار الحقيقة فرديا وبناء فكر مواطنى لديه القدرة على مساءلة الحقيقة ولا يتم ذلك إلا بإمعان العقل.

الهوامش والإحالات

- (1) - مبارك بن محمد المليي: رسالة الشرك ومظاهره، دار البعث، قسنطينة، الجزائر، ط3، 1982، ص284.
- (2) - محمد العيد تاورته: جمعية العلماء المسلمين الجزائريين (رد فعل وأسلوب في المقاومة)، أشغال الملتقى الوطنى للفكر الإصلاحي، دار الهدى، (عين مليلة)، الجزائر 2003، ص77-81.
- (3) - ابن باديس حياته وآثاره: إعداد وتصنيف عمار طالبي، دار اليقظة، دمشق، 1968، ج3، ص571.
- (4) - الإمام عبد الحميد بن باديس حياته وآثاره، الجزء2، المجلد 3، إعداد وتصنيف عمار طالبي، دار كردادة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013، ص215.
- (5) - فرانسواز أرمينيكو: المقاربة التداولية، تر: سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، سوريا، دط، ص75.
- (6) - ابن باديس : مج 3، ص 214 - 215.
- (7) - عثمان سعدي: جمعية العلماء المسلمين وعروبة الجزائر، أشغال ملتقى الفكر الإصلاحي في الجزائر دار الهدى، (عين مليلة)، الجزائر 2003، ص92.
- (8) - رابح تركي: عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح والتربية في الجزائر، ط3، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1981، ص270.

- (9) - لاستزادة انظر عمار بن مزوز، عبد الحميد بن باديس ومنهجه في الدعوة والإصلاح، ومنهجه في الدعوة والإصلاح، دار الأمل للنشر والتوزيع، تيزي وزو، 2010، ص 109-110.
- (10) - أصول الدعوة الإسلامية: عبد الحميد بن باديس، وزارة الشؤون الدينية، الجزائر، 1993، ص 16.
- (11) - المرجع نفسه، ص 15.
- (12) - عبد الحميد بن باديس، الجزء 02، المجلد 03، ص 52.
- (13) - عبد الحميد بن باديس، مج 1، ص 93.
- (14) - عثمان سعدي: جمعية العلماء المسلمين وعروبة الجزائر، الملتقى الوطني للفكر الإصلاحي في الجزائر، ص 93.
- (15) - محمد البشير الإبراهيمي: عيون البصائر، دار المعارف، القاهرة، 1963، ص 483.
- (16) - محمد بن قاسم ناصر بوحجام: دراسات عن الأدب الجزائري الحديث، نشر جمعية التراث، القرارة الجزائر، 2011، ص 8-9.
- (17) - تقرير البشير الإبراهيمي: مؤتمر جمعية العلماء المسلمين، دار المعرفة، ط 1، الجزائر، 2008، ص 90.
- (18) - آثار الإمام البشير الإبراهيمي: دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 1، 1997، ج 4، ص 226.
- (19) - المرجع نفسه، ص 227.
- (20) - آثار البشير الإبراهيمي: ج 1، ص 258.
- (21) - محمد زومان: المضمون الإصلاحي في أدب الإبراهيمي، أدب الحركة الإصلاحية، مفاهيم وقضايا دورة علال الفاسي، أعمال الملتقى الدولي الرابع للأدب الإسلامي، منشورات جامعة سيدي محمد بن عبدالله، فاس، المغرب، مارس، 2004، ص 287-288.
- (22) - عبد الحميد بن باديس: الجزء 2، مج 3، ص 9-11.
- (23) - عمار بن مزوز: عبد الحميد بن باديس ومنهجه في الدعوة والإصلاح، ص 87. وانظر إحالته: بن باديس: مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ط 1، قسنطينة، دار البعث، 1982، ص 60.
- (24) - عبد الحميد بن باديس: الجزء 1، مج 1، 2013، ص 169.
- (25) - محمد الحداد: حفريات تأويلية في الخطاب الإصلاحي، دار الطليعة، بيروت، ط 1، 2002، ص 10.
- (26) - بومعالي نذير: نقاط تقاطع في فكر مالك بن نبي وفكر بعض مدارس الإصلاح في العالم الإسلامي، دراسات إسلامية، دورية فصلية تعنى بالدراسات في مختلف العلوم الإسلامية، ع 6 سبتمبر 2009، ص 113.
- (27) - رابح تركي: الشيخ عبد الحميد بن باديس، باعث النهضة الإسلامية العربية في الجزائر المعاصرة موفم للنشر، الجزائر، 2013، ص 96-97.